جماليات وأبعاد الصورة المكانية عند شعراء شلبق في الاندلس

The aesthetics and dimensions of the spatial image of the poets of Shalab in Andalusia

أ.د.محمد عويد محمد الساير
Prof. Dr. Mohamed Owaid Mohamed Al-Sayer

م.د. ياسر فواز احمد سالم
Dr. Yassir Fawwz Ahmad Salem

جامعة الأنبار/ كلية التربية الأساسية / حديثة - المديرية العامة لتربية الأنبار / قسم تربية حديثة

الملخص:

مما لا شك فيه أن المرحلة الاندلسية حافلة وزاخرة في النتاج الأدبي وقد أثْرت الشارع الفكري بالكثير من الشعراء ولعوامل عدة قد اجتمعت في الأندلس جعلت منه حقبة متميزة على هذا الصعيد , والمتأمل في الأجواء المكانية للأندلس يجد أن عدداً من المدن الصغيرة قد احتوت شعراء كبار , صوَّروا المدينة بشعر متميز يدلك على الانتماء , والذي يميز المدينة أن الشعراء قد اهتموا بتفاصيل دقيقة عند ذكر الأمكنة , ونتيجة للتحولات الكبيرة التي يشهدها الموقع الاندلسي وتقلب الاحوال نجد أن للمكان أهميته البالغة في نفوس الناس أجمعين , فحنين الشاعر الى الموقع حنين المفارق , والذي هجرها دون عودة , فما صوره الشاعر من أمكنة إنما نابع من إحساس وشعور كبير وحب وعاطفة , فهو لا يذكر المكان لأنه موقع وإنما كان ذكره لغايات يدركها الشاعر , وخطابه للموقع كان حسياً فالشاعر يتفاعل مع الموقع وكأنه روح يخاطبه ويبث اليه مشاعره وما تخفيه نفسه , إنَّ هذا الشعور وهذه المواقف حدت بنا الى كتابة بحث يبين الموقع المكاني وأثره في نفس الشاعر وكيف صور الشاعر المكان ونقلها الى المتلقي , لذلك جاء البحث بعنوان: جماليات وأبعاد الصورة المكانية عند شعراء شلب في الاندلس , وتركز الدراسة على الصورة المكانية وقبلها وجب علينا أن نمرَّ بتمهيدٍ عن المكان في اللغة والاصطلاح وبيان أهمية المدينة وتسميتها وموقعها سريعاً , فقسمنا الدراسة على قسمين : الجانب النظري : وهو التمهيد , والجانب التطبيقي : والذي قسمناه على محورين : المحور الاول : وقفنا على جماليات التصوير المكاني وأبعاده , وقسمناه كذلك على قسمين القسم الأول : جماليات المكان , ودرسنا فيه جماليات صورة المكان الطبيعي , والقسم الثاني : جماليات صور الامكنة والديار وغيرها , والمحور الثاني : أبعاد المكان , ووقفنا فيه على البعدين , البعد الاجتماعي , والبعد النفسي , لقد بينا في دراستنا أهم الصور الجمالية التي استخدمها الشاعر في نقل جماليات الامكنة الى الواقع , مبينين طرائقهم في الخيال والرسم فكانت رسومهم في الغالب عن طريق البيان (التشبيه والاستعارة والكناية) فضلاً عن الرمز الذي استخدمه الشعراء في قصائدهم كي يرفع من قيمة النص الادبي , فضلاً البديع وبعض الصور من طرق أخرى , غير معنيين ومهتمين بالتقسيمات البلاغية لفنون البيان والبديع , وانتهت الدراسة بخاتمة ركزت على أبرز النتائج التي وصل اليها البحث ومن الله التوفيق .

Summary:

Undoubtedly, the Andalusia period was full and rich in literary production, and it influenced the intellectual street with many poets, and for several factors that had met in Andalusia, made it a distinguished era in this regard. Al-Madina with distinct poetry that indicates belonging, and what distinguishes the city is that poets have paid attention to minute details when mentioning places, As a result of the great transformations that the Andalusian site is witnessing and the volatility of conditions, we find that the place is of great importance in the souls of all people. His mention was only for purposes that the poet manages, and his speech to the site was sensual, as the poet interacts with the site as if he is a spirit addressing him and broadcasting to him his feelings and what his soul hides. This feeling and these attitudes prompted

us to write a research showing the spatial location and its impact on the poet's soul and how the poet portrayed the place and transmitted it to the recipient, so the research came under the title: Aesthetics and Dimensions of the Spatial Image for Shalab's Poets in Andalusia, and the study focuses on the spatial image and before it we have to go through With an introduction to the place in language and terminology and a quick statement of the importance of the city, its name and location, we divided the study into two parts: the theoretical side: which is the preamble, and the practical side: which we divided into two parts: The first section: we looked at the aesthetics of spatial photography and its dimensions, and we also divided it into two axes: the first axis: aesthetics The place, and we studied the aesthetics of the image of the natural place, Then the aesthetics of pictures of places, homes and others, and the axis: the dimensions of the place, and we stood in it on the social and psychological dimension. simile, metaphor, and metonymy) as well as the symbol that poets used in their poems to raise the value of the literary text, as well as the Budaiya and some images from other methods, not concerned and interested in the rhetorical divisions of the rhetorical divisions of the arts of eloquence and al-Badaa', and the study ended with a conclusion that focused on the most prominent results reached by the research and, uh, Good luck.

الجانب النظري

أولاً : المكان في اللغة الاصطلاح.

المكان : الموضع لكينونة الشيئ ويجمع على أمكنة ويقال: ضبة مكن اذا كان في بطنها اي: الموضع [1] وقد يطلق على بيض الضب بالمكن , نفهم من المكان معنى الموقع يُقَال: رجلٌ يَعمَلُ على مكانته ومَكينَتِه أي على موقعه[2] وَقَالَ جلّ في علاه: "اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ"[3] أي: على نَاحِيَتِكُمْ وموقعكم وحيالكم , ومنه القدرة فنقول : فلان لايمكنه القيام بشئ[4] , والمكان للإنسان وغيره ويجمع على أمكنة , ورجل عنده مكانة بين العرب فنقول : مكين وقوم مكناء [5] اي : المنزلة والجاه والسلطان , والمكان والمكانة واحد , ويجمع على أمكنة أو أماكن , والمكنان نبت ينبت في واد او هو الواد نفسه [6] يتضح لنا مما تقدم عدداً من المفاهيم منها الاطار , والفضاء, والموقع أو كما عرفته المعاجم الفلسفية بالحيز او الفضاء الذي يشغله الجسم او انه السطح الباطن والحاوي للسطح الظاهر[7], فنعلم أنه فضاء محدد يشغله الجسم [8] وقد يكون المكان مبهماً , وهو مكان له ما نسميه به، بسبب أمر داخل في مسماه، كالخلف مثلاً فإن تسمية هذا المكان بالخلف سببه ان الخلف يقع في جهة، وبذلك هو خارج عن مسماه , وعندنا المكان المحدد هو المكان الذي جعل له اسم محدد له يتميز به ، موافق له اي من صنعه وداخل في مسماه ، كالبيت ؛ فإن تسميته بها جاءت بسبب الجدار والاطار والسقوف وكل مكونات الدار[9] , وقد ذهب عالم الاجتماع موريس هاليفاكس الى ان المكان اطار اجتماعي يختزن الذكريات الاجتماعية , وجعل منه شرطاً لحفظ الموروث الحضاري والثقافي للمجتمعات بالانسانية[10] , نفهم من اعلاه ان المكان ليس فقط الاطار والمحيط بالحدث وانما هو قضية نفسية واجتماعية ترتبط بالجانب الاجتماعي والمجال المعيشي فهو انتماء وهوية وارتباطه ارتباط وجود[11] فهو يمثل قيمة كبيرة في حياة الشاعر فلربما ينظر الشاعر الى المكان وتعود به اللحظات الى ايام تشعل المكنون في صدره , او يمثل هذا المكان حدثا اليماً او مفرحاً او حدثاً سياساً وبالتالي نعلم ان المكان ومنذ ايام الوقوف عليه في الطلل ورحلة الظغائن مثل اهمية عظيمة في نفس الشاعر نقف عليها في الجانب التطبيقي.

ثانياً : شِلْب :

بكسر أول الكلمة ، وسكون ثانيها ، وآخرها باء موحدة ، من أبرز مدن البرتغال وحواضرها الاسلامية ازدهرت فيها الثقافة بشكل كبير فكانت تعج بالأدباء مستحسنة لهم يقول ابن بسام واصفاً إياها : كانت شلب مركزاً للأدب والثقافة [12]ويهتم بذكرها الادريسي ويدها من المدن التي اهتمت بالادب واللغة وعلوم الدين وغيرها ويورد منها طائفة العلماء التي انجبتهم شلب كالأعلم الشنتمري, ومن بعده حفيده جعفر بن محمد بن الأعلم القاضي وكانا أئمة في النحو, وعبد الله بن السيد البطليوسي , وابو الوليد حسان ابن المصيصي[13]

وغيرهم , وبالحديث عن موقعها فإنها تقع بغربي الأندلس عند غربي قرطبة، وكانت قاعدة لولاية أشكونية، وبينها وبين قرطبة عشرة أيام للراكب المجدّ ، يصف موقعها القزويني بقوله : بلغني أنّه ليس في بلاد الأندلس بعد إشبيلية مثلها ، فلها بسيط يتسع وبطائح تكبر وتنفسح ، وبها جبل منيف عظيم كثير المياه والمسارح[14] ويندهش الحموي عندما سأل عنها فيصف ممن سمع منهم بقوله : قلّ أن ترى من لايهتم بالادب فيها ومن لا يقول شعرا من أهلها ، وحتى الفلاح فيها كان يقرض الشعر ولو إقترحت عليه أي معنى من المعاني لقال فيه دون أن يعاني[15] وهذه من عجائب البلدان ومنقبة من مناقبها وفي الحديث عن وصفها فهي تعد من المدن الحسنة في ارض مبسوطة وعليها سور حصين ولها جنات وفيها وادٍ من الماء الجاري تحيطها الجبال من كل اتجاهاتها والمدينة في ذاتها جميلة حسنة الهيئة بديعة في المباني ومرتبة الأسواق ويسكن قراها عرب من اليمن وغيرها يتكلمون الفصحى من العربية ويقولون الشعر وهم نبلاء خاصتهم وعامتهم واهلها غاية من الجود والكرم وحسن الطباع[16] فيها البساتين والاشجار من العنب والتين والتفاح العجيب، يفوح من المدينة روائح العود والمود من الورود والازهار والكلام في وصفها جميل ويطول .[17]

الجانب التطبيقي
جماليات التصوير المكاني وابعاده

المحور الاول: جماليات المكان.

أولاً : جماليات صورة المكان الطبيعي .

ارتبط المكان الطبيعي بالانسان ارتباطاً وثيقاً جداً وكونا سوية علاقة حميمة ولمسنا ذلك منذ القدم ونزولاً بالعصر الاندلسي والذي تميز شعراؤه بهذا اللون كثيراً , اذ جعلوا من الطبيعة ارواحاً فكلموها وحاكوها وبثوها شكواهم وافراحهم لذلك ارتبط مفهوم الطبيعة بالشاعر الاندلسي , ونجد أنها علاقة روحية وخفية لما يحمل المكان من صور تظل ملازمة في خلد الشاعر كلما مر به , فمثل المكان مورداً كبيراً ومهماً بالنسبة لأشعارهم فكلما وجد الشاعر نفسه في حاجة الى بث نفائسه الداخلية التجأ الى المكان المناسب وتحدث معه عن أجمل لحظات صباه أو عشقه , فكانوا كما يقول النابلسي : يتفاعلون مع الطبيعة بما يناسب تجاربهم [18],كما في تجربة أبي القاسم بن كامل الشِلْبِي مع النهر:

وَرُبَّ نَهْرٍ كالدِّرْعِ لكن — للرِّيحِ في صُنْعِهِ فُنُونُ
عَذْبٍ كَمِثْلِ المِرَاةِ صَافٍ — تَرَى بِهِ شَخْصَهَا السَّفِينُ
كألفِ الخطِّ مستقيماً — وَإِنْ لَوَى مَعْطَفاً فَنُونُ
يَكَادُ ضَحْضَاحُهُ صَفَاءً — ترسب في قعره العيونُ
تَثْنِي الصَّبَا دَوْحَ ضِفَّتَيْهِ — كما ثَنَتْ هُدْبَهَا الجُفُونُ
والايكُ مثل العليل يبدو — لها بِمَرِّ الصَّبَا أَنِينُ
وَوَلْوَلَ الطَّيْرِ في ذُرَاهَا — فانْدَفَعَتْ تَرْقُصُ الغُصُونُ [19]

وفي صورة تشبيهية يصف لنا تموجات النهر كالدرع عندما تظهر تقاسيمه الريح , وطعمه العذب وصفاء الماء فيه كما المرآة يرى السفين نفسه فيه ,أو هو كما المعطف المخطط بألف خط والذي أظهر الخياط براعته في الحياكة , ثم لنقاوته وصفائه ترى أرضه وقاعه وكأن عينيك في قعره , ومن أجمل صوره في القصيدة التقاء ضفتي النهر كما تلتقي الجفون عندما يشبه فعل الصبا بالنهر , والايك العليل له أنين عندما تحركه الريح , ورقصات الغصون بفعل حركات الطيور التي اختبأت في ذراها , لقد مثل النهر, والايك , والصبا , والطير , والاغصان , تاريخ شاعر محمل بالذكريات والمشاهد التي عاشها الشاعر الشلبي في صباه , فالجلوس عند مجرى النهر يحرك ما في داخلك من كوامن حتى وإن لم يذكرك النهر بشيئ كما الحدث الذي مر بالشاعر ابن سكن عندما كان بمجلس فرح وأُنس على النهر في شِلْب وعند الجسر اذ ينساب ماء النهر بشكل مسلسل الى البحر وتضرب العذوبة والصفاء الملح والاجاج ، وفي هذه اللحظات تمرَّ جارية لعبور الجسر , إنَّ هذا المكان أشعل جذوة الشعر بداخل ابن سكن وعادت به الذكريات الى الرصافة والجسر وعيون المها بينها , وما زاد من اضرام ناره أن الفتاة سترت محاسنها عندما أحست بنظرات ابن سكن عليها فقال:

وعقيلةٍ لاحتْ بشاطئِ نهره — كالشَّمس طالعةً لدى آفاقِها

فكأنَّها بلقيسُ وافت صَرْحَها لو أنَّها كشفتْ لنا عن ساقها

حوريةٌ قمريةٌ بدويّةٌ ليس الجفا والصدُّ من أخلاقها (20)

من أجمل الصور التي يمكن ان ينقلها الشاعر تلك التي ترسم عن طريق التشبيه وأجمل ما يمكن أن يشبه الشاعر محبوبته هي الشمس في نورها , وطلعتها , وهيبتها , وفضلها في السماء على سائر الكواكب إذ جمعت الشمس الحسن المادي والمعنوي , فلا تجد فيها عيباً كما أنها ترمز الى الآلهة قديماً والى الضياء عند المسلمين ,فأي فتاة آخاذة يعرفها ابن سكن , ثم يقلل الشاعر من شأن المرأة شيئاً فيشبهها ببلقيس عندما وافت الصرح غير أنها لم تكشف عن ساقيها ولو كشفتهما لكانتا كالحورية القمرية البدوية , أي ذكرى أعادت الشاعر الى الرصافة والجسر ليقول هذا الكلام.

ثانياً : جماليات صورة الديار والامكنة والشوق اليها.

يمثل المكان علاقة كبيرة ومتلازمة تسهم في تداعي الاحداث والذكريات لدى الشعراء , فمنذ القدم كان المكان وثيق الصلة بالشاعر , ومثل عاملاً مهماً لتحريك القريحة لديه , وذكره للمكان ينبع من حدث مهم يذكره فيه وهذا ما لمسناه قديماً عند الشاعر الجاهلي الذي اتخذ من الوقوف على الاطلال عنوانا لبدايات قصائدهم , وعند التمعن في الوقوف نفهم ان ذلك ينبع من العاطفة الجياشة والحب العميق لهذه الاماكن ومن ثم فإنها كانت تمثل رمزاً للبين والفراق , فعند الوقوف على الاماكن تشتعل العاطفة في صدر الشاعر وتمر الاحداث سريعاً في مخيلته فهو فقدان للاحباب والشاعر تائه نفسياً والديار ترمز الى الموت وما ذلك الا الحنين كما يصفه فريد جحا بأنه حنين الى الديار وشعرهم مختلط بالحب والحنين والشوق[21], نجد ذلك في شوق الفاضل أبي عمرو بن مالك الشلبي اذ يجسد شوقه الى مدينته شلب في صورة شوق وحنين يبث بها لواعجه اليها فيقول مخاطباً نفسه:

أَشَجَاكَ النَّسِيمُ حين يَهُبُّ أم سَنى البرقِ إذ يَخُبُّ ويخبُو

أم هَتوفٌ على الأراكةِ تَشْدُو أم هَتونٌ من الغَمامةِ سَكْبُ

كلُّ هذاكَ للصَّبابةِ داعٍ أيُّ صبٍّ دموعُهُ لا تصُبُّ

أنا لَوْلا النسيمُ والبَرْقُ والوُر قُ وصَوْبُ الغمامِ ما كنتُ أصْبُ

ذكَّرَتْنِي شِلباً وهيهات مِنِّي بَعْدَما استحكم التّباعدُ شِلْبُ (22)

في هذا المقطع يصور لنا الشاعر شوقه الى مدينته شلب مستخدما الصورة الكلية في رسمها فيصور لنا شجاه أي: حزنه على مدينته وكمية الشوق التي يحملها اليها وفيه يعدد اسباب الحزن من الاماكن وما يذكره بالمدينة , فهو يحزن ويشتاق كلما هب النسيم اذ يجد فيه ريح المدينة , وكلما لاح برق وخبا وفي اشارة لطيفة استخدم الشاعر الجناس بين يَخُبُّ ويخبُو ليضع القارئ في تصوير دقيق للبرق , ثم تزيد الحمائم من شوقه حينما تهتف على الارائك بشدوها فلا نعلم ما الذكريات التي اثارها الهتوف , وفي هتون الغمامة ذكرى لتلك الايام الجميلة ومدعاة الى الصبابة تحرك الاحداث والمواقع اشجان الشاعر كثيراً ثم يجانس ثانية بين الصب أي الشوق وصب الدموع أي : نزوله, ثم يعدد لنا مسببات الشوق الى شلب وهي : النسيم , البرق , الورق , والحمام على الارائك , مكان الغمام , وكلها اتجاهات مدينته ومواقعها التي تذكره بها ولكن هيهات اذ استحكم التباعد عليه وقيده ومنعه من الوصول الى شلب , وهنا رسم دقيق للمشهد عن طريق الاستعارة المكنية , عندما نطالع اشعار شلب هنا نشعر بإهتمامهم بالصورة ورسمها , والوصول اليها لم يكن عن طريق واحد فقد يرسم الشاعر خياله بأي وسيلة تصوير كما في تصوير أبي الحسن صالح الشنتمري لسفينته عن طريق الكناية يقول وفي قوله حنين:

ألا يا خيرَ من يُبْغَى نداه ويُسْعَى نحو منزله ويُمشى

تحنُّ إلى بناتِ البحر نفسي وأكرهُ أن تموتَ لديَّ عطشى (23)

يصف شوقه البالغ الى بنات البحر وهي كناية عن موصوف إذ يقصد السفينة فهي المؤنسة لديه , فأي علاقة بين الشاعر والسفينة وبماذا ذكرت شاعرنا حتى يشتاق إليها لقد تكونت علاقة حميمية بين الانسان والمكان منذ القدم لأن ادراكه للمكان ادراك حسي يستمر معه مع الوقت[24] نشعر بما يحسه الشاعر من شوق وحزن الى السفينة , نحن نعلم المعني من ذلك ليس لوحات الخشب او الشراع او جزء من السفينة إنما شوق الشاعر حسي اذ يجعل من المكان مجسما يبث شكواه اليه , وقد لا يكون في الامكنة ما يشتاق اليها الشاعر إنما هو وصف لها ولطبيعة الحياة هناك كما في وصف أبي القاسم بن كامل الشِلْبِي لحمام السباحة واحتدام مرمره , فيقول واصفاً الحناء المسال على أجسام الفتيان :

وَحَمَّامٍ لِمَرْمَرِهِ احْتِدَامُ كما احْتَدَمَتْ بِلاعِجِهَا الضُلُوعُ

أَقَامَ بِظِلِّهِ فِتْيَانُ حُسْنٍ كزهر الحسن يكنفه الربيعُ

كَأَنَّ مَسَامَّهُمْ أَجْفَانُ بَاكٍ ومن نَضْحِ الحَمِيمِ بها دُمُوعُ

وَقَدْ بَثُّوا من الحِنَّاءِ مِسْكًا فَفَاضَ عَلَيْهِمُ مِنْهُ رُدُوعُ (25)

يصور الشاعر الشلبي الحمام وفي تصويره احتمالان عندما يشبه احتدام الحمام بإحتدام الضلوع وكأنما يشبه حرارة الحمام وبخاره الساخن بحرارة الضلوع عند الفتيان , وكذلك يجول في البال ثورة مرمر الحمام وتلاصقه على ارضية الحمام وغضبه كثورة الضلوع وغضبها لتلاصقها على اجسام الفتيان , وفي كلا التشبيهين لفتة جميلة لتصوير مشهد الحرارة تشبيه جميل ودقيق بإستخدامه الاداة "كما" , ثم يصور المشهد الثاني وهو جلوس الفتيان بظل الحمام كالزهر في كنف الربيع وعندما نتأمل الصورة بدقة نشعر بجمالها اكثر فتيان حسن كما الزهر الحسن وجلوسهم في ظل الحمام كجلوس الزهر في كنف الربيع ,وهنا شخص الشاعر من الحمام والربيع وكأنهما امٌ للفتيان والزهر يحتمون في كنفيهما , ثم ينتقل الى مشهد الرقة وتلك المسام الرقيقة وكأنها أجفان باكٍ , يربط الشاعر هنا بالآداة كأن فهو ينوع في أدوات التشبيه وهي قدرة جميلة على ابقاء السامع منتبها ثم يصور لنا المشهد الاجمل في لوحته عندما يشبه قطرات الماء الخارجة من مسام اجسام الفتيان نتيجة الحرارة كما قطرات الدموع النازلة من العيون بحرارة كذلك والجامع بينهما الرقة , وأخيراً يصور لنا مشهد الحناء المختلط بالمسك والنازل على اجسادهم كفيض أحمر ودواء لصاحب العلة , وقد يذكر الشاعر الامكنة في مجال المدح والفخر كما في قول أبي الوليد اسماعيل الشِّلْبيّ والملقب بابن الشواش في بيعته وتهنئته :

بِالمنبت الزاكي تأصَّل واعتلَى وسقاه صَوْب الفضل هَتُونُ

ريان من ذاك النَّعيم هَنَا له وصفا له اليُنْبُوع وهو مَعِينُ

وحنتْ عليه حانياتٌ لِلعُلى بمكانِه من عُلْوهنَّ مكِينُ

ترك المِهادَ لسَرْج أجردَ سابحٍ وصفَا عليه سرده الموضُونُ

"وكأنَّما الهيجاءُ أمٌّ برَّةٌ تحنو عليه برفقة وتلين

"حنَّت مطهمةُ الجِيادِ ليَومهَا فَصهِيلُها شَوْقٌ لهَا وحَنِينُ

"وحَنتْ مؤطَّرةُ القِسِيِّ سياتها وعَلا لهَا إثْرَ الرَّماء رَنِينُ (26)

رسم مستقبلي لصورة الامير عن طريق البيان (الكناية الاستعارة والتشبيه) وعن طريق الرمز حين ذكر الامكنة التي ترمز الى الفخر, والقوة, والعز , فيصف لنا الامير عن طريق الكناية بالمنبت الزاكي وهي كناية عن الأصل الطيب وإبن الاكارم والاصول والذي سقاه أصله هتون الاصالة , ريان وصفا له الينبوع ويريد بذلك أنه وبعد سلالة طويلة يخرج لنا الامير محصنا صافيا متعلماً فيه صفات القيادة كاملة كما الينبوع الذي يأتي من أبعد الاماكن ليصلنا صافياً وهذه استعارة للأصالة , وبإستعارة مكنية طويلة يصف لنا حنو المجد اليه وهو المتمكن من هذا المكان والاصلح لمثل هكذا موقع , ومن أجله ترك المهاد الى ركوب السوابح الجرد , وحنت اليه الجياد فهي تفتقد فرسانها وعلم بهذا الحنو من صهيلها الذي يملؤه الشوق , وحنت اليه مؤطرة القسي والاقواس والسلاح , وفي التشبيه يصور لنا حنان الهيجاء لشجعانها وكأنما هي أمٌ تحنو على أطفالها , لقد جمع الشاعر هنا عدداً من الامكنة التي ترمز الى الريادة والقيادة فالمنبت الزاكي يرمز الى الاصالة , والينبوع يرمز الى النقاء , والسرج يرمز الى الفروسية , والهيجاء ترمز الى الشجاعة , من ذلك نخلص أن الامكنة في أشعار شلب جاءت لدلالات معينة .

المحور الثاني : أبعاد التصوير المكاني .

أولاً : البعد النفسي .

ان للمكان أبعاداً نفسية لها الاثر الكبير في نفس الشاعر سلباً او ايجاباً وهذا يعتمد على مثيرات الشاعر النفسية من المكان , فكثيراً ما كان المكان ملاذاً يلتجأ اليه الشعراء ويمثل لهم الحرية والأمان , ونراهم يعودون مكاناً عاشوا فيه الطفولة او مثل لهم حدثاً مهماً , او ذكرى يستظهرها الشاعر وقت مشاهدته للمكان , ان بالمكان بعد غياب طويل يفتح امامه خيالات محفورة في ذهنه ويشحن نفسه بطاقة وجدانية , وباستحضاره له يسهم في تقديم رؤية نفسية تتشكل في صور مختلفة , لما للمكان من من اثر في ابراز المكنون النفسي لذات المنشئ , وبالتالي هو انعكاس لعلاقة ارتباط وثيقة فيما بينهما , فهو ليس تلك المساحة الهندسية على حد وصف غاستون اذ لم يعد مقيداً بالابعاد والحدود والمساحة بل هو الحد البشري لأحداث او مواقف في هذا الموقع[27] فلم يكن يوماً عنصراً زائداً في العمل الفني بل ربما كان الهدف من العمل ووجوده [28] كما في شعر بن سيدراي محمد بن وزير عند مروره بوادي الحمام في بعض سفرياته فَسمع هتوف حمامة فهاجت قرائحه فقال شوقاً وحنيناً :

أحمامةً ناحتْ على وَادي الْحَمَام — خلِّي ادِّعاء جَوى المشوقِ المُستهامْ

أين الدموع وأين لبس الحزن ام — أَيْن التلذّذ بَين أثْنَاء الْخيامْ؟

أحللتِ أَنْضَرَ أيكةٍ تهفو على — وَادٍ تصفّق إذْ خلوتِ من الغرامْ؟

وصدحتِ بالكفِّ الخضيبِ كمُوقعٍ — ببنانه يَتْلُو بهَا نغم الْكَلَامْ

وَزَعَمتِ أَنَّك هَامةٌ لليوم أَو — غده وشأنك يا حمام سوى الحمام

أنا ذاك لي جسم عفا بالسقم إذ — وفَّى لعلوةَ غير مَذْمُوم الذمامْ

مَا كنتُ أعلمُ قبله أنّ الجوى — يَبري الجسوم كَمثل مَا يبري الحسام [29]

جمع الشاعر في رسم صورته عدداً من المقومات فيبدأ شوقه باستفهام استنكاري عن طريق الهمزة وتكرار الاسم "أين" ثلاث مرات في اشارة منه الى تأكيده على مقصده , فيخاطب حمامة تبكي على وادي الحمام ويعلمها أنهما في نفس الشوق الى الوادي , ثم وبحرقة يبث اشجانه عندما يسأل عن الدموع والحزن والتلذذ , وباستخدامه الاستعارة يجعل من الوادي يصفق بفعل حركات الحمام على الايك , وبجناس لطيف يخبر الوادي أنه لم يبقَ منه سوى الحِمام يا حَمام , وأن جسمه قد برى وعفته الصحة ولزمته الاسقام , ثم ينفي علمه بما يفعله الحزن والألم بصاحبه وأن أثره عليه كأثر السيف على الجسم بل أن الجوى يبري صاحبه بري الحسام , لقد ترك المكان أثره على صاحبه فصدحت نفس الشاعر وهاجت قرائحه بما يكنه من شوق وحزن والم لمسناه في كمية الشعور التي أفاضها في قصيدته الحزينة عندما استحضر ذكرياته وصورها في لوحة فنية نتخيل فيها حال الشاعر المكسور ومما يزيد من صورة الحزن الاليمة عندما يعود ابن الشاعر بعد عدة سنين والى المكان ذاته ويتذكر والده وكان قد مات ويستحضر شعور الاب فيقول عبد الله بن محمد بن وزير معارضا اياه :

أحمامة الوادي أخفت من الحمام — فشكوت مَا تلقين شكوى المستهامْ

كذب الْحَمامُ فَأَيْنَ دَعْوَى مُظهرٍ — أشجانَه من ذِي خَفَاء واكتتامْ

شهِدت دموعي والجوى وَلَو أنني — خَاصَمتُ بالجسمِ السقيمِ كفى السّقامْ

بل قد عذرتُك يَا حمام فَلم تُطقْ — عوناً يبين عَن الَّذِي بك من أوامْ

مَا باختيارك خُضّبتْ كفٌّ وَلَا — قُلّدتْ طوقاً مَا لَهُ عَنْك انفصامْ

أَو مَا ترى الكحلاءَ طبعا تَشْتَكِي — ثُكلاً وناظرُها يدلُّ على اتهامْ

رُدي الهديل فإنني أشْجَى بِهِ — يَا لَيْتَني لم أدرِ يَوْمًا مَا الغرامْ [30]

يعارض الابن أباه بذات الطريقة والذي هاجت مشاعره كما الاب قبله حينما ذكره الوادي بأبيه فيتكلم مع الحمامة ويعطف عليها لأنه شعر بأنهم على ذات الحال من الجوى وبتشبيه عن طريق الاستعارة المكنية يشبه

الحمام بالناس والذين يخفون شكواهم كما انت هنا تخفيها , ويعيش الشاعر هنا حالة نفسية صعبة عندما يصور لنا خصومته مع مرضه وأنه قد سأم السقم , بل ان الشاعر يلتمس الاعذار للحمامة التي اصابها الاوام : العطش فلا من معين على عطشها , وان المقادير تجري على غير ما نحب فالطوق على رقبتك مكتوب , عودي يا حمامة واصدحي هديلاً لا نوحاً ولننس الغرام بل يا ليتنا لم نعرف ما هو الغرام , القصيدتان فيها كمية من الحزن واللوعة , وفيه رموز تدل على مكنونات عبر عنها الشاعران فكانت الحمامة ترمز الى المحبوبة التي أضاعوها , والوادي يرمز الى الوطن والسكينة وهم أغراب عن أوطانهم , لذلك صورت لنا القصيدتان البعد النفسي الذي تركه المكان فيهم .

ثانياً : البعد الاجتماعي .

لم يغفل الشعراء الحالة الاجتماعية فحاولوا اظهارها من خلال التركيز على القيم والعادات التي تسود ابناء المجتمعات والتعبير عن القضية الاجتماعية والهموم التي تنتشر في المجتمع الواحد وهذا الشيئ معتاد , فالشاعر من نتاج المجتمعات وهو الأداة للتعبير عن مشكلاتها بالشعر[31] والمجتمع مؤثر كبير ولا يستطيع الشاعر ان يتجاهله وفي الشعر تعبير عن علاقة الشاعر بالمجتمع وما شعره الا انعكاس لهذه العلاقة[32] ويتكيف المكان مع نفس المنشئ واحتياجاته الاجتماعية فهو كون لا متناهي وحر وعلاقة التآلف بين الانسان والمكان تشكل الاساس لكل عمل فني[33] وفي التركيز على البعد الاجتماعي للمكان نلحظ ثمةَ علاقة بين المكان وتلك العادات والموروثات الاجتماعية , وفي بيان الحالة الاجتماعية التي يمر بها أي مجتمع فما ذلك هو توثيق توثيقاً للإرث الثقافي له , ولبيان ذلك نطلع على قصيدة ابي الفضل بن الاعلم وكانت لوحةً من الشوق والحنين الى ايام الصبا ويذكر من خلالها بعضاً من العادات والذكريات أيام الطفولة والصبا مستبشراً في مطلعها قائلاً :

بشراي أطلعت السعود على آفاق أنسي بدرها كملا

إيه أبا نصرٍ، وكم زمنٍ قصر ادكارك عندي الأملا

هل تذكرن والعهد يخجلني هل تذكرن أيامنا الأولا

أيام نعثر في أعنّتنا ونجرّ من أبرادنا حللا

ونحل روض الأنس مؤتنفاً وتحلّ شمس مرادنا الحملا

ونرى لياليا مساعفة تدعو إلينا رفقنا الجفلى

زمنٌ نقول على تذكره ما تم حتى قيل قد رحلا

عرضت لزورتكم وما عرضت إلاّ لتمحق كلّ ما فعلا [34]

في قصيدة مدحية يبدأها الشاعر مستبشراً بقدوم الامير والذي اكتمل البدر بقدومه , ثم يتحسر على الايام الخوالي بلفظة "إيه" وذكرى القصر واستفهامه الاستنكاري ب"هل" لذكرى عهد الطفولة والنشأة , وأيام ركوب الخيل , وثيابهم الجميلة يجرونها جرا , وتلك اللقاءات على الروض مسرورين حتى تحل الشمس عليهم مغتبطين , ومرور الليالي مساعفة يجتمع فيها الاحبة , والحسرة على الزمن الذي مضى سريعاً زال ولم يتم الاحبة مرادهم , وتلك الزيارة الجميلة ما هي إلا ليسترجع الذكرى , صور لنا الشاعر هذا المشهد الاجتماعي عن طريق اجتماع البيان مع البديع والتركيب والأسلوب , ليخرج بمشهد يبين فيه البعد الاجتماعي(كأيام الطفولة , الالعاب , الزيارات) والذي اظهرته الامكنة (كالأفق , الروض , القصر) وبما ان المكان مسرح الاحداث ووعاؤها فإن الشخصيات تأخذ دورها على كافة الابعاد والمكان هو الذي يظهرها على الواجهة , لقد مثل البعد الاجتماعي عند شعراء شلب مكانة متميزة في قصائدهم عرضوا من خلالها عاداتهم القديمة كما مر بنا عند الشاعر الاعلم , وهذا نجده توثيقاً لموروث شعب جسد أيامه ولياليه وأمكنته بصور شعرية .

الخاتمة :

لكل جانٍ ثمرة , وجني البحث نتائجه , نقف في ختام دراستنا على أبرز النتائج وتمثلت فيما يلي :

- يكمن اختيار الموضوع من اهميته البالغة في المجال الادبي , إذ مثل المكان للحقبة الاندلسية جانباً مكملاً لجماليات الصورة في القصيدة هناك .
- امتاز المكان في الاندلس عن غيره بطبيعة ساحرة , وعمران جديد مثل حضارة شعب مثقف مما حدا الشعراء الى التجمل فيه .
- وجدنا في البحث ثمة علاقة بين الشاعر والمكان , وما شعره الا انعكاساً لهذه العلاقة , وذكره للمكان نابع من ارتباط .
- المكان في قصائدهم كائن حي يتكلمون معه ويتعاطفون ويتعاتبون فيما بينهم وقد يحنو عليهم ولربما يفرغون همومهم عند يرونه .
- وقوف الشاعر على المكان ما هو الا استرجاع ذكريات وشريط احداث تمثل تاريخ وحقبة واحداث حفظها له هذا الموقع .
- عدَّ المكان اطاراً اجتماعياً يختزن الذكريات الاجتماعية , وايام الصبا , ومغامرات العشق , والرحلات , والزيارات , وجلسات السمر وغيرها .
- مثل المكان وثيقة مهمة لحفظ الموروث الثقافي والحضاري للمجتمعات الانسانية , سيما المجتمع في الاندلس .

الهوامش:

1- ينظر : جمهرة اللغة , أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي, المحقق: رمزي منير بعلبكي , دار العلم للملايين – بيروت , ط1، 1987م:983/2.
2- ينظر : تهذيب اللغة , محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور, المحقق: محمد عوض مرعب , دار إحياء التراث العربي – بيروت , ط1 ,2001م:161/10.
3- الْأَنْعَام: 135.
4- ينظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية , أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي , تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار , دار العلم للملايين – بيروت , ط4, 1407 هـ - 1987 م:2205/6.
5- ينظر : جمهرة اللغة : 983/2.
6- ينظر : لسان العرب , محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى دار صادر – بيروت, ط4, 1414 هـ:412/13.
7- ينظر : المعجم الفلسفي , مراد وهبة , دار الثقافة الجديدة , القاهرة , ط3, 1979: 421.
8- ينظر : المعجم الفلسفي جميل صليبا, دار الكتاب اللبناني , ج2: 412.
9- التعريفات ,علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني, المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر , دار الكتب العلمية بيروت – لبنان , الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م: 227.
10- ينظر: قضايا الفلسفة العامة ومباحثها , علي عبد المعطي , دار المعرفة الجامعية , الاسكندرية , ط2 , 127/2.
11- ينظر : فلسفة المكان في الشعر العربي , منشورات اتحاد الكتاب العرب , دمشق : 2001/ 2.
12- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة , أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني, المحقق: إحسان عباس , الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس , طبعات متعددة : 275/3.
13- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الادريسي ,عالم الكتب، بيروت ,الطبعة: الأولى، 1409 هـ:544/2.
14- آثار البلاد وأخبار العباد: زكريا بن محمد بن محمود القزويني , دار الكتب الوطنية , ابو ظبي , 2016 م : 541.
15- معجم البلدان: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ,دار صادر، بيروت ,الطبعة: الثانية، 1995 م :3 /357
16- نزهة المشتاق:544/2.
17- صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى ,عنى بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها: إ. لافي بروفنصال أستاذ تاريخ المغرب العربي بجامعة الجزائر، ومعهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس، ومدير فخري لمعهد الأبحاث المغربية العليا بالرباط : دار الجيل، بيروت – لبنان ,الطبعة: الثانية، 1408 هـ - 1988 م:106.
18- ينظر : جماليات المكان في الرواية العربية , شاكر النابلسي , المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع , 1994 : 252.
19- جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة في صلة المطمح والذخيرة مما ولدته المحاسن في هذه المدة الاخيرة ، أبو الحسن علي ابن الفخار الرعيني ، تحقيق وتقديم : د. البشير التهالي ، د. رشيد كتاني ، مؤسسة الرسالة ناشرون –بيروت ، ط1 ، 1440ه – 2019م : 131-132.
20- تحفة القادم ، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي ،أعاد بناءه وعلّق عليه: الدكتور إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1406 هـ - 1986 م : 63-64.

21- ينظر : الحنين إلى الوطن في شعر المهجر، فريد جحا , المطبعة العربية، حلب، سوريا، ط1، : 8.
22- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني ، تحقيق: إحسان عباس ، دار صادر- بيروت – لبنان ، 1997: 184/1.
23- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني , تحقيق : إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ط 2، 1981 : 584/2.
24- ينظر : جماليات المكان , غاستون باشلار، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر : 42.
25- جنى الازاهر النضيرة : 130.
26- المصدر نفسه : 131-132 .
27- ينظر : جماليات المكان : 31.
28- ينظر : جماليات المكان في القصة القصيرة , احمد طالب , دار العرب للنشر والتوزيع , وهران : 50 .
29- الحلة السيراء ، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي ، تحقيق: الدكتور حسين مؤنس ، دار المعارف – القاهرة ، 1985م : 297/2.
30- الحلة السيراء : 2 / 298 .
31- ينظر : دراسات نقدية في شعرنا الحديث , د. علي عشري زايد , مكتبة ابن سينا , ط2 , 2002: 36-37.
32- ينظر : رؤية نازك الملائكة لقضايا الشعر المعاصر , محمد احسان , مجمع اللغة العربية , دمشق :31/1.
33- ينظر : جماليات المكان في الشعر العربي المعاصر , قادة عقاف , دار العرب للنشر والتوزيع , وهران , 2002:17.
34- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان ابن عبد الله القيسي الإشبيلي، تحقيق : محمد علي شوابكة، دار عمار - مؤسسة الرسالة، ط1، 1403 هـ - 1983 م : 303-304.

المصادر والمراجع :

- القران الكريم .
- آثار البلاد وأخبار العباد: زكريا بن محمد بن محمود القزويني (المتوفى: 682هـ),اعداد د. بشير ابو قرايا , دار الكتب الوطنية , ابو ظبي : 2016.
- تحفة القادم ، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (المتوفى: 658هـ) ،أعاد بناءه وعلّق عليه: الدكتور إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 : 1406 هـ - 1986.
- التعريفات , علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ) المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر , دار الكتب العلمية بيروت –لبنان , ط1: 1403هـ -1983م .
- تهذيب اللغة , محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ) , المحقق: محمد عوض مرعب , دار إحياء التراث العربي – بيروت : ط1 ,2001م .
- جماليات المكان , غاستون باشلار، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر(د.ت) .
- جماليات المكان في الرواية العربية , شاكر النابلسي , المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع : 1994 .
- جماليات المكان في الشعر العربي المعاصر , قادة عقاف , دار العرب للنشر والتوزيع , وهران : 2002 .
- جماليات المكان في القصة القصيرة , احمد طالب , دار العرب للنشر والتوزيع , وهران(د.ت) .
- جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة في صلة المطمح والذخيرة مما ولدته المحاسن في هذه المدة الاخيرة ، أبو الحسن علي ابن الفخار الرعيني (ت 666 ه) ، تحقيق وتقديم : د. البشير التهالي ، د. رشيد كتاني ، مؤسسة الرسالة ناشرون –بيروت ، ط1 : 1440ه – 2019م .
- جمهرة اللغة , أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ) , المحقق: رمزي منير بعلبكي , دار العلم للملايين – بيروت , ط1: 1987م .
- الحلة السيراء , ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (المتوفى: 658هـ) , المحقق: الدكتور حسين مؤنس , دار المعارف – القاهرة , ط2: 1985م .
- الحنين إلى الوطن في شعر المهجر، فريد جحا , المطبعة العربية، حلب، سوريا، ط1(د.ت).
- دراسات نقدية في شعرنا الحديث , د. علي عشري زايد , مكتبة ابن سينا , ط2 : 2002 .
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (المتوفى: 542هـ)، تحقيق : إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ط 2: 1981 .
- رؤية نازك الملائكة لقضايا الشعر المعاصر , محمد احسان , مجمع اللغة العربية , دمشق(د.ت).
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية , أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ) , تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار , دار العلم للملايين – بيروت , ط4: 1407 هـ - 1987 م .
- صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى (المتوفى: 900هـ) ,عنى بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها: إ. لافي بروفنصال أستاذ تاريخ المغرب العربي بجامعة الجزائر، ومعهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس، ومدير فخري لمعهد الأبحاث المغربية العليا بالرباط : دار الجيل، بيروت – لبنان ,ط2: 1408 هـ - 1988 م .
- فلسفة المكان في الشعر العربي , منشورات اتحاد الكتاب العرب , دمشق : 2001 .

- قضايا الفلسفة العامة ومباحثها , علي عبد المعطي , دار المعرفة الجامعية , الاسكندرية , ط2 .
- لسان العرب, محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ) , دار صادر – بيروت , ط3: 1414 هـ .
- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان ابن عبد الله القيسي الإشبيلي، تحقيق : محمد علي شوابكة، دار عمار - مؤسسة الرسالة، ط1: 1403 هـ - 1983 م .
- معجم البلدان: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: 626هـ) ,دار صادر، بيروت , ط2: 1995 م .
- المعجم الفلسفي جميل صليبا, دار الكتاب اللبناني , بيروت , لبنان : 1982.
- المعجم الفلسفي , مراد وهبة , دار الثقافة الجديدة , القاهرة , ط3: 1979.
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الادريسي (المتوفى: 560هـ) ,عالم الكتب، بيروت ,الطبعة: الأولى، 1409 هـ .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب , شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: 1041هـ) , المحقق: إحسان عباس , دار صادر- بيروت - لبنان.